(٦)

أثر اللغة المكتوبة في التصور النحوي للدوالّ الإعرابية

الأستاذ الدكتور محمد أحمد أبوعيد

- أستاذ من الأردن.
- دكتوراه، في تخصص اللسانيات التطبيقية، وعنوان أطروحته: «الاتساق النحوي والمعجمي في الخطاب الشعري العربي»، عام ٢٠٠٢م.
- درس اللغة والنحو في عدة جامعات، منها جامعة البلقاء، وجامعة حائل.. وهو الآن أستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة الحدود الشمالية.
- له بحوث منشورة في محلات محكمة.

أثر اللغة المكتوبة في التصور النحوي للدَّوالّ الإعرابية

الملخص:

سعت هذه الورقات للكشف عن أثر اللغة المكتوبة في التصور النحوي للدوالّ الإعرابية، ببيان أن توزع هذه الدوالّ على محاور ثلاثة: الحركة والحرف والحذف، هو تصور ينبني على المكتوب لا المنطوق، فالنظر التقليدي خلط بين اللغة والكتابة، وعليه راح يصف المكتوب بدلًا من المنطوق مما أوقع التصور النحوي للدوالّ الإعرابية في الوهم.

وعليه، راحت الدراسة تنقض التصور التقليدي بأدوات لسانية معاصرة، منها الفصل بين المنطوق والمكتوب، واتكاء الدرس على النطق دون الكتابة، وكذلك استعانت الدراسة بالتصنيف اللساني للأصوات اللغوية إلى صوامت وحركات وأشباه حركات، وباعدت في ذلك كله بين الحرف والصوت، لتبني على ما نقض تصورًا آخر بديلًا، لا يصف الكتابة، بل اللغة في تجسدها المنطوق. وفي المنطوق توزعت الدَّوالّ الإعرابية على محاور خمسة، هي:

- الحركات القصيرة والطويلة.
- أشباه الحركات.
- اختزال الحركات.
- المقاطع.
- مورفيم الصفر (الدالّ الصفريّ).

هذا، وانطوت الدراسة على نتائج أخرى ذات أهمية.

Abstract

The Influence of Written Language on Grammarians' Image of Inflectional Signifiers

This study aims at investigating the influence of written language on grammarians' view of inflectional signifiers. The study reveals that the distribution of those signifiers on three dimensions, namely: vowels, letters, and deletion depends on writing instead of utterance. The researcher relies on contemporary linguistics to invalidate the traditional understanding. The study has come up with new perception in which those signifiers are classified into five categories: short and long vowels, semi vowels, reduction of vowels, syllables, and zero morpheme.

The study has concluded other important conclusions.

أثر اللغة المكتوبة في التصور النحوي للدَّوالّ الإعرابية[1]

*** مدخل:**

تروم هذه الورقات بيان الأثر الذي تجلبه اللغة المكتوبة على تصور النحويين العرب للدَّوالّ الإعرابية[2]، والورقات إذ تروم ذلك، فإنها تنطلق مما توصلت إليه المباحث اللسانية المعاصرة من فصل حاسم بين المنطوق والمكتوب، بما ينطوي عليه ذاك الفصل من النظر إلى المنطوق بوصفه ميدانًا للاستكشافات اللغوية، وبما ينطوي عليه الفصل، أيضًا، من النظر إلى الكتابة على أنها ليست الموضوع المركزي في اللسانيات.

أما الدَّوالّ الإعرابية فتقصد الدراسة بها: الشكل اللغوي للعلامة الإعرابية؛ إذ إن تلك العلامة، وبوصفها علامة لغوية، تنطوي ككل

(١) أعدّ هذا البحث بدعم من جامعة الحدود الشمالية في المملكة العربية السعودية.

(٢) يحدد السيميائيون المعاصرون موضوعهم بالعلامات أو الإشارات، والعلامة عندهم تتكون من شقين: دال ومدلول، وفي هذا السياق جاء تعريف سوسير للغة بأنها نظام من العلامات، والمقصود بالعلامات في اللغة الوحدات الصرفية (المورفيمات)، والمكونة، أيضًا، من دالّ ومدلول، أما الدَّالّ فشكل لغوي (بنية) وأما المدلول فوظيفة هذا الشكل ومعناه، ومن هنا، فإن النظر للعلامات الإعرابية بوصفها وحدات صرفية يقتضي من الدارس أن يقسّم هذه العلامات إلى قسمين: دوالّ ومدلولات، أما الدوالّ فشكل الإعراب أو بنيته اللغوية سواء في ذلك أكانت البنية قد وجدت بالفعل أو بالقوة، وأما المدلولات فتؤشر على تلك الوظائف والمعاني التي تفضي إليها الدوالّ الإعرابية.

العلامات على جانبين: الدالّ والمدلول[1]، فالنظر إلى اللغة على أنها نظام من العلامات[2] يفضي إلى اعتبار العلامات الإعرابية جزءًا من العلامات اللغوية، وعليه، تشتمل العلامة الإعرابية على الدالّ والمدلول، وإذا كان الدالّ يشير إلى المنطوق من العلامة بالفعل أو القوة، فإن المدلول يشير إلى ما يفضي إليه المنطوق من معنى أو وظيفة.

بهذا الفهم، فإن الدَّوالّ الإعرابية من مثل الضمة والفتحة والكسرة هي دوالّ نطقية أو ملفوظات لغوية، تشير إلى وظائف الكلم في الجمل، ببيان الفاعل والمفعول به والمبتدأ والخبر...، والنظر إلى الدَّوالّ بهذا النحو، أي بوصفها ملفوظات لغوية (منطوقات)، هو ما سيفضي بالدراسة الحالية إلى تصور آخر للدوالّ الإعرابية يتخالف وما نعثر عليه من تصورات كلاسيكية عند النحويين العرب.

*** هدف الدراسة:**

تقصد هذه الدراسة بيان الأثر الذي تجلبه اللغة المكتوبة على تصور النحويين العرب للدوالّ الإعرابية، باعتبار أن ذلك التصور انبنى على المكتوب دون المنطوق، وهو ما يتخالف وما أقرته الدراسات اللسانية الحديثة من أن المنطوق لا المكتوب هو مادة التحليل اللغوي.

(١) سوسير، ١٩٨٥، ص٥٠.

(٢) المسدي، ٢٠١٠، ص٩٧.

وإذا كانت الدراسة تقصد ذلك، فإنها تهدف أيضًا لبناء تصور علمي آخر للدوالّ الإعرابية، يكون بديلًا عن تصور النحويين العرب، على أن ينبني التصور البديل على تحليل المنطوق، وحده، دون النظر في ما يخطه القلم، إلا إذا كان المخطوط يسعف في بيان الحقيقة اللغوية.

*** الدراسات السابقة:**

انشغل النحويون القدماء بالعلامة الإعرابية[1] على نحو كبير، ومما يدلّل على ذلك ظهور الجذر (ع ر ب) في كثير من عنوانات ما صنفه أولئك النحويون من مؤلفات، من مثل: "إعراب القرآن" المنسوب للزجاج، و"سر صناعة الإعراب" لابن جني، وكذلك "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" لابن هشام، مع التنبّه إلى ما تشتمل عليه هذه المصنفات من خلط بين النحو والإعراب؛ ومن منح مكانة مركزية للعلامات الإعرابية في العمل النحوي.

وممن أسهموا في درس العلامات الإعرابية من الأقدمين قطرب (محمد بن المستنير) (ت ٢٠٦هـ)، وجاء إسهامه في مخالفته لجمهور النحويين في مدلول الحركة الإعرابية، فهي لم تجئ عنده لبيان المعنى أو الوظيفة، بل جاءت لضرورات صوتية يمثلها جعل التحريك بعد الإسكان، لصعوبة الوصل مع التزام الوقف[2]، إن معالجة الرجل للعلامات

(١) يمكن أن نزعم أن الأقدمين تكلموا عن العلامة الإعرابية بشقيها الدّالّ والمدلول، دون أن يستخدموا المصطلحين، فهم أشاروا للعلامة وأشاروا إلى وظيفتها، فأحكموا القول في الوظائف دون أن يوازي ذلك إحكام في وصف الدّوالّ وتحليلها، بسبب من الخلط بين منطوق اللغة ومكتوبها.

(٢) الزجاجي، ١٩٨٦، ص٧٠-٧١.

الإعرابية، هُنا، اقتصرت على النظر في الحركات دون علامات الإعراب الأخرى.

وأفرد الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) بابًا للعلامة الإعرابية في كتابه: "الإيضاح في علل النحو"، إذ تناول فيه القول في الإعراب والكلام أيهما أسبق[١]، ولعل ما نجده في هذا الباب من ربط بين العلامة الإعرابية والكلام ليشي، نظريًّا، بتصور الزجاجي للعلامة على أنها جزء من الكلام المنطوق، وبرغم ذلك فإن البحث الميداني عند الزجاجي وعند غيره من النحويين ظلَّ ينظر في ما هو مكتوب وغضّ الطرف عما هو منطوق.

من جانب آخر، صنف أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) كتابًا أسماه: "اللباب في علل البناء والإعراب"، وفيه حكى إن الإعراب زائد على الكلمة[٢]، ومن هنا، فإن حركة البناء لازمة في حين أن حركة الإعراب متنقلة، واللازم أصل للمتزلزل[٣].

كان ذلك أظهر ما خالف السائد من الأفكار حول العلامات الإعرابية عند الأقدمين، أما عند المعاصرين، فعنيت غير دراسة بتلك العلامات؛ من ذلك ما جاء به إبراهيم مصطفى في كتابه: "إحياء النحو"، وفيه زعم أن

(١) الزجاجي، ١٩٨٦.

(٢) العكبري، ج٢، ١٩٩٥، ص٧٤.

(٣) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٨.

الضمة علم للإسناد، والكسرة علم الإضافة، والفتحة حركة خفيفة مستحبة للوصل ودرج الكلام[١]، إنّ ما جاء في "إحياء النحو" بخصوص الفتحة يلتقي وما نص عليه قطرب بخصوص الحركات الإعرابية، مع التنبه إلى أن الرجلين نظرا في المدلولات الإعرابية دون دوالّها.

ومن الدراسات اللافتة في هذا الباب كتاب إبراهيم أنيس: "من أسرار اللغة"، وزعم فيه أن العلامات الإعرابية إنما هي من وضع النحاة الأقدمين[٢]، وليست من اللغة في شيء.

ومن ذلك ما جاء به تمام حسان في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها"، إذ رأى العالم اللغوي أن الحركة الإعرابية تصلح لأن تكون علامة إعرابية إيجابًا بالذكر وسلبًا بالحذف[٣].

والدارس الحالي يختلف وتمام حسان في عده "عدم الذكر" حذفًا، فالنص على حذف الحركة إنما يفترض أن الأصل هو الذكر، وهو محض افتراض لا يلتقي وما بشّر به تمام حسان نفسه من منهج وصفي في دراسة اللغة، إذ الوصفيون لا يقولون بالأصل والفرع[٤]، هذا من جهة، ومن جهة

(١) غازي، ص٧١٣.

(٢) أنيس، ص٥.

(٣) حسان، ١٤١٨هـ، ص٧٢.

(٤) عبد الله، ٢٠٠٧، ص٦١.

أخرى، فإن التكلم عن الأصل والفرع في العلامات الإعرابية يفترض أن تكون المفردة المعجمية الساكنة هي الأصل، وهي مفردة تخلو من أي علامة للإعراب، مذكورة أو غير مذكورة، وهو ما يجعل الدراسة الحالية تنظر لعدم الذكر بوصفه مفهومًا يختلف عن الحذف.

ودرس مهدي المخزومي المدلولات الإعرابية؛ فكرّر ما سبقه إليه إبراهيم مصطفى من أن الضمة للإسناد، والكسرة للإضافة، في حين عدَّ الفتحة لما ليس بإسناد أو إضافة[1]، وإلى جانب المدلولات الإعرابية عُني المخزومي بدوالّ الإعراب (موضوع الدراسة)، وفي نظره: ليس في العربية إلا الحركات الثلاث دوالّ على المعاني الإعرابية، أما ما ظنّه النحويون القدماء حروفًا مستقلة تقوم مقام الحركات في الإعراب فغير دقيق، فالحروف ليس بينها وبين الحركات القصيرة من تفاضل إلا في المدة الزمنية للصوت، وعليه، فالحروف الحركات أصوات مد طويلة[2].

وبرغم أن المخزومي قدّم تصورًا علميًّا جديدًا لبعض من الدَّوالّ الإعرابية، وهو تصور يتفق وما تذهب إليه الصوتيات المعاصرة من نظر

(١) غازي، ص٧١٤-٧١٥.

(٢) المخزومي، ١٩٦٤، ص٦٨.

للحركات الطويلة والقصيرة[١]، إلا أن هذا التصور كان جزئيًّا، ولم يقد الرجل إلى بناء تصور كلي بديل عن التصور التقليدي.

وصنف محمد حماسة كتابًا بعنوان: "العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث"، وعد فيه بتناول العلامة الإعرابية من منظار حداثي[٢]، إلا أن الكتاب لم يأتِ بأي تصور لساني جديد للدوالّ الإعرابية.

وممّن عُني بالعلامات الإعرابية أحمد سليمان ياقوت، فقد ألف كتابًا وسمه بـ "ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم"، وعد فيه بتناول العلامات الإعرابية على هدي من الدرس المعاصر[٣]، إلا أن ما نجده في الكتاب ليس إلا عرضًا تقليديًّا للعلامات الإعرابية؛ خلط فيه الكاتب بين الإعراب والنحو، وتناول موضوعات مكرورة، من مثل: نظرية العامل وأثر الفقه في النحو والدعوة إلى هجر الإعراب[٤]، وعلى ذلك، فإن كتاب ياقوت لم يفرد شيئًا من سطوره لتناول الدَّوالّ الإعرابية، وفق تصور لساني معاصر.

(١) الخولي، ١٩٩٠، ص٥٠.

(٢) حماسة، ١٩٨٣.

(٣) ياقوت، ١٩٩٤، ص هـ.

(٤) ياقوت، ١٩٩٤.

ولعل من أخطر الدراسات تناولًا للعلامات الإعرابية ما قدّمه عبد السلام المسدي في كتابه: "العربية والإعراب"، فقد درس الكتاب العلامات الإعرابية، من وجهة لسانية معاصرة، وعدَّ العلامة الإعرابية علامة صوتية: حركة قصيرة أو حركة طويلة أو مقطع(١)، ولعل ذلك، وإن ورد ذكره بإيجاز فيما تكلم المسدي عليه من أمر الإعراب، فإنه، ليظل الأكثر تحولًا في دراسة الدَّوالّ الإعرابية عند الأقدمين والمعاصرين، مع التنبّه لما يشتمل عليه نص المسدي من غضٍّ للطرف عن دوالّ إعرابية أخرى، ستكشف عنها الدراسة.

وبرغم أن المسدي عرض لمدلولات الإعراب، من وجهة علمية لسانية، إلا أنه غفل عن معالجة الشق الآخر من العلامات الإعرابية، ألا وهو الدَّوالّ، فالمسدي لم يأت على درس الدَّوالّ الإعرابية من حيث التصورين: التقليدي واللساني، ولم يفصح، تفصيلًا، عن دور الكتابة في تصور النحويين لتلك الدَّوالّ.

وبَحَثَ إسماعيل عمايرة العلامات الإعرابية في مقالة له بعنوان: "العلاقة الصوتية بين آخر الكلمة وأوّل مجاورتها في التركيب النحوي"(٢)، فدرس المدلولات الإعرابية دون الدَّوالّ، ليهب للحركات الإعرابية

(١) المسدي، ٢٠١٠، ص٦٥.

(٢) عمايرة، ٢٠١٢.

وظيفة ثالثة، فبالإضافة لما تنجزه هذه الحركات من بيان المعنى ووصل الكلام، فإنها تسهم في عدم الاختلاط بين الكلمة والكلمة الأخرى في السياق اللغوي[١]، ولعل الدالّ الإعرابي، هنا، يقوم بوظيفته "المفصل" (Juncture) في الدراسات الصوتية الحديثة: وإذا كان المفصل، يدلّ على ما بين الكلمات من سكتات[٢]، فإن المفصل، هنا إنما ينجز الفصل بين الكلمات بوصلة صوتية ليست من جنس الكلمات، وبذا، فإن المفصل الجديد ليس مورفيمًا صفرًا كما في كل المفاصل اللغوية المحكيّ عنها، بل هو مورفيم منطوق.

على أية حال، فإن دراسات أخرى كثيرة عرضت للعلامات الإعرابية بالدرس[٣]، لكنها لم تتناول العلامات الإعرابية بما يشتمل عليه مفهوم

(١) عمايرة، ٢٠١٢، ص١٣٩.

(٢) عمر، ١٩٨٥، ص٣١٣.

(٣) من تلك الدراسات، مثلًا: "العلامة الإعرابية بين الرواية الشفوية والنظام الكتابي" لإسماعيل القيام، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٨، العدد (٢)، نيسان، ٢٠١٢؛ و"حركات الإعراب بين الوظيفية والجمال، دراسة وصفية تحليلية" لنائل محمد إسماعيل، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد (١) يناير، ٢٠١٢، و"الإعراب وأثره في المعنى" لفضل الله النور علي، مجلة العلوم الإنسانية والاقتصادية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، العدد (١)، يوليو ٢٠١٢.

العلامة من دالّ ومدلول، ولم تسع لأن تطرح تصورًا لسانيًّا بديلًا عن التصور التقليدي.

ومن هنا، تمتاز الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة، فهي تنشغل بالدَّوالّ الإعرابية بوصفها شقًّا من العلامة الإعرابية، وبوصفها شقًّا منطوقًا لا مكتوبًا، والدراسة، على ذلك، تسعى لأن تطرح تصورًا لسانيًّا بديلًا عن التصور التقليدي لتلك الدَّوالّ.

*** الدرس النحوي بين المنطوق والمكتوب:**

بدأ العمل النحوي عند العرب وصفيًّا[١]؛ فالنحاة سمعوا الأعراب وشافهوهم، إلا أن ما سُمِعَ دُوِّن، وعليه جاء النظر النحوي فيما كتب لا في ما نطق، مع ما يشتمل عليه المكتوب من خداع ومن تسجيل منقوص للمنطوق.

إن عمل النحاة على هذا النحو لم يكن مظهرًا تمتاز به الثقافة العربية وحدها؛ فالنحاة في مرحلة ما قبل سوسير، وصفوا المكتوب دون المنطوق[٢]، وهو وصف طمس المعالم الحقيقية للغة[٣]، فما يخطه القلم يعجز عن أن يمثل ما ينطق به اللسان، لا بل إن المكتوبات تَحْرِف الأداء اللغوي عن مضمونه[٤]، بسبب أن الكتابة لا تنطوي على ما هو حي من المسموعات، بل هي نظام يقوم على قواعد خاصة للخط والإملاء[٥] تختلف عن القواعد اللغوية، وعلى ذلك، فالكتابة نظام علاماتي آخر غير النظام اللغوي[٦].

(١) حسان، ٢٠٠٤، ص٩٠.
(٢) سوسير، ١٩٨٥، ص٤٣.
(٣) سوسير، ١٩٨٥، ص٤٨.
(٤) عمايرة، ٢٠١٢، ص١٤٩.
(٥) حسان، ٢٠٠٤، ص٩٠.
(٦) بركة، ص١٥١.

ولأن الدرس التقليدي تعلق بالمكتوب لا المنطوق، فإنه لم يكشف عن حقيقة الدَّوالّ الإعرابية، وفق ما يفضي إليه الوصف للمنطوق. ولم يكشف عن الدَّوالّ تلك بوصفها الشق المنطوق من العلامة اللغوية الإعرابية[١]. بالرغم من أن العلامة الإعرابية احتلت موقع المركز من مجمل العمل النحوي التقليدي.

إن دراسة الجانب المنطوق من العلامة الإعرابية، إنما هو بحث في النظام العلاماتي للغة، فالجانب المنطوق من العلامة دالّ لغوي يفضي إلى مدلوله[٢]، من جهة أخرى، فإن البحث في الدَّوالّ دون المدلولات بحث أنطولوجي، إذ ينظر الباحث في تلك الدَّوالّ باعتبارها موجودات فيزيائية منطوقة.

*** الدَّوالّ الإعرابية عبر اللغات:**

ليس الإعراب، بما ينطوي عليه من دوال ومدلولات، مقصورًا على العربية وحدها، بل ثمة شواهد عليه في كثير من اللغات، فالسنسكريتية والإغريقية واللاتينية عرفت الإعراب، لكن اللغات المتولدة عنها أزاحت

(١) المسدي، ٢٠١٠، ص٩٥.

(٢) المسدي، ٢٠١٠، ص٩٥.

الإعراب، واستبدلت به الموقعية دليلًا على الوظيفة، وعلى ذلك، لا نجد للإعراب دورًا وظيفيًّا في الفارسية والفرنسية واليونانية الحديثة[١].

أما في الساميات، فثمة شواهد قديمة تنطق بالإعراب[٢]، كما في النصوص: البابلية[٣] ومكتوبات حمورابي[٤]، لكن الساميات تخلت عن تلك الدَّوالّ، فراحت تأتي كغيرها بالموقعية بديلًا عنها[٥]، وهو عين ما نراه في اللهجات العربية المعاصرة.

إن ظهور الإعراب في لغات غير سامية وفي اللغات السامية، أيضًا، يشير إلى قدم الظاهرة، وينقض، في الوقت نفسه، تصورات بعض المعاصرين المشككة في قدم الدَّوالّ الإعرابية، باعتبارها من صنيع النحويين[٦]، أو أنها وضعت قبل الإسلام[٧].

لقد عرف الأقدمون قدم الظاهرة وأصالتها، بالرغم من غياب ما توفر للمعاصرين من أدوات، كمعرفة الساميات والمنهج المقارن؛ وفي ذلك

(١) ياقوت، ١٩٩٤، ص٥.
(٢) ولفنسون، ١٩٨٠، ص١٥.
(٣) فك، ١٩٥١، ص٣.
(٤) غازي، ص٧٠٣.
(٥) فارس، ١٩٨٧، ص١٨.
(٦) أنيس، ص٥.
(٧) الحمزاوي، ١٩٨٢، ص١١٨.

يقول الزجاجي: "فأخبروني عن الكلام المنطوق به الذي نعرفه الآن بيننا، أتقولون إن العرب كانت تنطق به زمنًا غير معرب، ثم أدخلت عليه الإعراب، أم هكذا نطقت به في أول تبلبل ألسنتها، قيل له هكذا نطقت به أول وهلة، ولم تنطق به زمانًا غير معرب ثم أعربته"[١].

*** اللسانيات والإعراب:**

تَعُدُّ الدراسة الحالية نفسها ضربًا من الاستبطان اللساني أو الاستكشاف اللغوي؛ إذ تهدف إلى التعرف على حقيقة الدَّوالّ الإعرابية وبيان طبيعتها اللغوية النطقية، والدراسة، باتكائها على المعرفة اللسانية، تؤكد ما تواطأ عليه اللسانيون المعاصرون من القول بأن ما وصلت إليه اللسانيات المعاصرة من نضج إنما هو كسب معرفي شامل لا يختص بثقافة دون أخرى[٢]، وبذا، فإن البحث في حقيقة الدَّوالّ الإعرابية في لغة العرب إنما هو مراجعة للشبكة التصنيفية للأنظمة النحوية في اللغات البشرية.

والدراسة الحالية، ببحثها في دوالّ إعرابية مقصورة على العربية القديمة دون اللهجات المعاصرة، تؤكد على أن أظهر ملامح النضج اللساني هو ذلك الانبهار للحدود الفاصلة بين البحث النحوي القديم (الفيلولوجيا)

(١) الزجاجي، ١٩٨٦، ص٦٩.

(٢) المسدي، ٢٠١٠، ص٥.

واللسانيات المعاصرة[١]، وبذلك تسهم الدراسة الحالية في رفد المعرفة اللسانية المعاصرة بأنموذج من الميدان اللغوي، يمثّل طريقًا ما عاد معهودًا في عالم اللغات اليوم، إذ يتكئ النموذج على غير الموقعية في بيان الوظائف النحوية[٢].

تاليًا، تكشف الدراسة عن الأثر المجلوب من الكتابة على التصور النحوي للدوالّ الإعرابية، سعيًا لنقض التصور التقليدي وبناء تصور آخر بديل.

*** الإعراب وعلاماته:**

تعددت تعريفات الإعراب في مصادر النحو العربي القديم، فالزجاجي (٣٣٧ هـ) يعرفه بأنه: "الحركات المبينة عن معاني اللغة"[٣]، وأما أبو علي الفارسي (٣٧٧هـ)، فالإعراب، عنده، "تغيير أواخر الكلم واختلافها باختلاف العوامل"[٤]، وجُعل الإعراب عند ابن النديم (٣٨٠هـ) "ثلاث حركات، الرفع والنصب والخفض، لأن الحركات الطبيعية ثلاث حركات، حركة من الوسط كحركة النار وحركة إلى الوسط كحركة

(١) المسدي، ٢٠١٠، ص٥.

(٢) المسدي، ٢٠١٠، ص٦٤.

(٣) الزجاجي، ١٩٨٦، ص٩١.

(٤) الفارسي، ١٩٨٢، ص٢٢٩.

الأرض وحركة على الوسط كحركة الفلك[١]، وهو عند العكبري (٦١٦هـ): "اختلاف آخر الكلمة لاختلاف العامل فيها، لفظًا أو تقديرًا"[٢]. وجاء الإعراب عند ابن هشام (٧٦١هـ): "أثر ظاهر أو مقدّر يجلبه العامل في آخر الكلمة"[٣]، وهو عند الأشموني (٩٠٠هـ): "ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف أو سكون أو حذف"[٤].

إنّ ما يمكن الخلوص إليه من مجمل التعريفات أعلاه:

- تربط التعريفات، على نحو واضح، بين العلامات الإعرابية والحركات القصيرة، ولعل أظهر ما جاء في ذلك، ما ورد عند الزجاجي وابن النديم، إذ حصر الرجلان العلامات بالحركات القصيرة. والأقدمون، في ربطهم ذلك، إنما ينظرون في المكتوب لا المنطوق، فالمكتوب العربي يثبت رسومًا للصوامت والحركات الطويلة وأشباه الحركات، ولا يثبت بالتوازي مع تلك الرسوم رسومًا للحركات القصيرة، بل يجعل منها زوائد فوق الحرف أو تحته.

(١) ابن النديم، ص١٣.

(٢) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٢.

(٣) ابن هشام، ج١، ١٩٧٥، ص٣٩.

(٤) الأشموني، ج١، ص٢٦.

- إن تصور النحويين للبناء بأنه أصل وللإعراب بأنه فرع[١]، جعلهم ينظرون للإعراب بما يربطه بالحركات الأصلية الثلاث، إذ هي فرع على الحروف وهي زوائد على الكلم[٢]، كما هي زوائد على الحروف.

- توزعت العلامات الإعرابية عند الأقدمين على ثلاثة محاور: الحركة الحرف والحذف، وإن ضمّ الأشموني إليها فصيلًا رابعًا: السكون، وهو، على ذلك، إنما يفرق بين الحذف والسكون، ولا يجعل السكون حركة.

على أية حال، فقد استمر هذا التصور للدوالّ الإعرابية عند كثير من النحويين المعاصرين ممن اشتغلوا بالنحو من خارج الدائرة اللسانية، فجاءت تعريفات الإعراب عندهم على ما جاءت عليه عند الأقدمين، فالإعراب: "حركات يلتزم بها المتكلم للإبانة عن أغراض كل كلمة يستخدمها"[٣]، وهو: "الإعراب عن المعاني بالحركات الدالة عليها"[٤]، والإعراب: "أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الكلمات"[٥]، وهو:

(١) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٨.
(٢) أبو عيد، ٢٠٠٦، ص٢٢١.
(٣) عبد الجواد، ١٩٧٢، ص٣٣.
(٤) المبارك، ١٩٧٩، ص٧٤.
(٥) وافي، ١٩٨٨، ص٢١٠.

"اختلاف حركات أواخر الكلم المعربة باختلاف وظائفها ومواقعها في التركيب"[١].

أما النظر اللساني النحوي، فجاءت تعريفاته للإعراب مغايرة لما سلف، فالإعراب "ليس إلا تغييرًا لفظيًّا ظاهرًا يطرأ على الكلمات المرنة القابلة بحكم بنيتها للتكيف[٢]، وهو "تغير أواخر الألفاظ صوتيًّا أو مقطعيًّا عند خروجها من المخزون المعجمي وولوجها الكلام المؤلف أقوالًا"[٣].

إن ما تكشف عنه التعريفات السابقة أن النحويين التقليديين ظلوا يعرفون الإعراب في سياق نظرهم في المكتوب، وأما النحويون من ذوي النظر اللساني فجاءت تعريفاتهم مبنية على المنطوق وحده؛ هذه القطيعة بين النحوين القديم واللساني هي ما ستكشف عنه الورقات القادمة من الدراسة، ولعل الكشف يكون، أولًا، ببيان العيوب التي ينطوي عليها النموذج القديم، والتي يوضحها الرسم أدناه:

(١) غازي، ص٧٠٧.

(٢) طحان، ١٩٩٠، ص١٧٩.

(٣) المسدي، ٢٠١٠، ص٦٤.

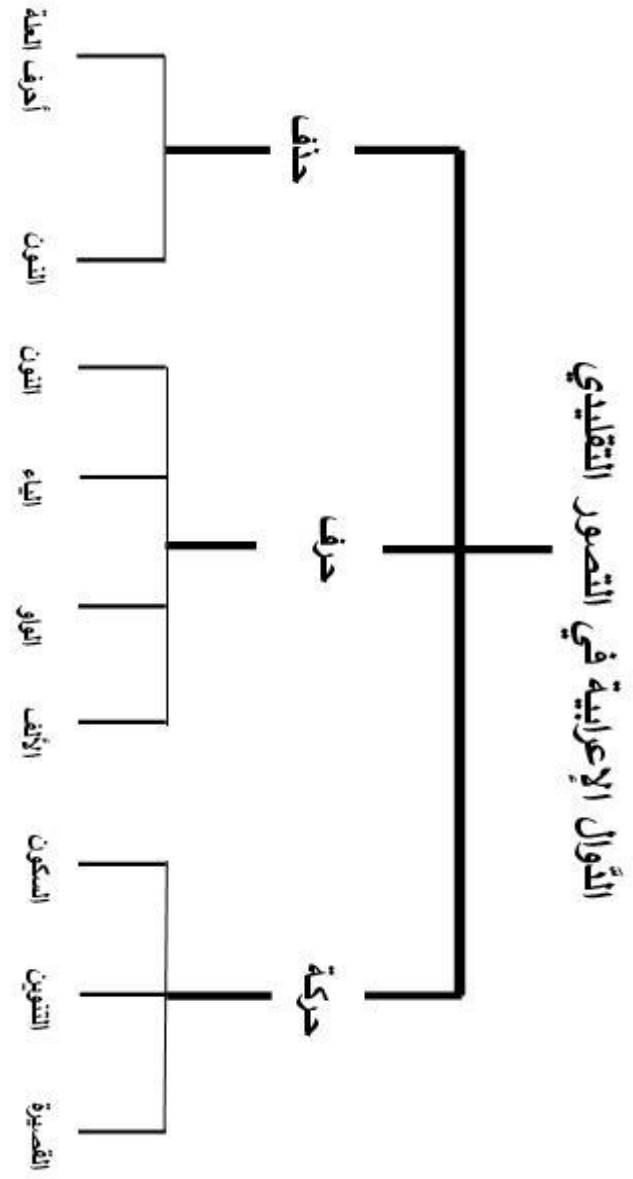
الدَّوال الإعرابية في التصور التقليدي
حذف
حرف
حركة
أحرف العلة
النون
النون
الياء
الواو
الألف
السكون
التنوين
القصيرة

شكل (١)

*** خطة البحث:**

تعمل الدراسة فيما يقدم من صفحات على نقض التصور التقليدي للدَّوالّ الإعرابية، ببيان أن هذا التصور ينبني على المكتوب دون المنطوق، فالأقدمون نظروا في ما خطّه القلم لا في ما ينطق به اللسان، وهم على ذلك، خلطوا بين اللغة والكتابة، فجاء تصورهم للدَّوالّ الإعرابية خاطئًا وساقطًا في الوهم.

أما النظر في المنطوق لاستكشاف الدَّوالّ الإعرابية، فتستعين الدراسة فيه بما توصلت إليه اللسانيات المعاصرة من أفكار كالفصل بين المنطوق والمكتوب، والاتكاء على المنطوق بوصفه المادة العلمية للسانيين، وكذلك تأخذ الدراسة بالتصنيف العلمي للأصوات اللغوية إلى صوامت وحركات وأشباه حركات.

ينضاف إلى ذلك الأخذ بالنظريات اللسانية المعاصرة: العلامة اللغوية والفونيم والجرافيم والمورفيم.

*** التحليل اللساني للدوالّ الإعرابية**

ـ الحركات:

وتشتمل، وفق التصور التقليدي، على الحركات القصيرة: (الضمة والفتحة والكسرة) والتنوين والسكون.

أما الحركات القصيرة فينص الأقدمون على أنها أصل العلامات الإعرابية[1]، فجميع ما جاء على غير الحركة من الدَّوالّ إنما هو فرع عليها، والحركات القصيرة مما تماثل فيه واقع المنطوق مع المكتوب، فيصح، على ذلك، تسميتها بالدَّوالّ الحركات القصيرة، كما تكشف عن ذلك الكتابة الصوتية في الأمثلة، أدناه:

- يا يوسفُ

yuusufu

يوسفُ =yuusuf + u

رأيتُ يوسفَ

yuusufa

يوسفَ =yuusuf + a

(١) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٤.

كتبت بقلمِ الحبرِ

qalami

قلمِ = qalam + i

أما التنوين فبرغم أنه صنف مع الحركات، إلا أن واقعه النطقي يخالف واقعها؛ فالمكتوبات العربية تشير للتنوين بتكرار الرسم للحركة القصيرة، كما في: (وً-وـ)، هذا في المكتوب، أما المنطوق، فيكشف عن حقيقة أخرى مغايرة للتنوين، إذ هو نون ساكنة تسبقها حركة، وفق ما يظهر في الكتابة الصوتية:

كتابٌ

kitaabun = kitaab + un

كتابًا

kitaaban = kitaab + an

كتابٍ

kitaabin = kitaab + in

فتنوين الضم ما هو إلا ضمة تليها نون، وكذلك، فإن تنوين الفتح فتحة تليها نون، وتنوين الكسر كسرة تليها نون.

وما يكشفه هذا التحليل: ثبوت النون وتغير الحركة القصيرة، وإذا كان الإعراب يوسم بالتزلزل عند الأقدمين[١]، فإن الدالّ الإعرابي، هنا، إنما هو الحركة القصيرة وحدها، وليس التنوين. بغض الطرف عما يهبه الباحثون للنون من دلالات[٢].

أما إن بقيت النون جزءًا من الدالّ الإعرابي، فإن التغير محكوم بالمقطع لا بالصوت:

kitaab + un = kitaabun

كتابْ = س ح + س ح ح س

ٌ = ح س

وإذا كان المقطع العربي لا يبدأ بحركة مطلقًا[٣]، وإذا كان المقطع: (س ح ح س) مقطعًا مكروهًا في العربية[٤]، فقد جرى التخلص منه بإعادة توزيع المقاطع في الكلمة المعربة بالتنوين، لتتشكل من مقاطع ثلاثة متوالية على نحو من:

كتابٌ

kitaabun

(١) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٨.

(٢) الزعبي، ٢٠٠٦، ص٧٧١.

(٣) عمر، ١٩٨٥، ص٢٥٦.

(٤) الشايب، ٢٠١٢، ص١٨٠.

س ح + س ح ح + س ح س

وهي من المقاطع المألوفة في العربية[١]، مع التنبّه إلى أن ما جرى مع (كتاب) في حالة تنوين الضم، هو ما جرى مع الكلمة نفسها في تنويني النصب والجر، ومع التنبّه أيضًا، إلى أن التغيرات المقطعية المصاحبة للتنوين ستتغير بتغير الكلمة، ففي "محمدْ" مثلًا، تكونت الكلمة قبل الإعراب من ثلاثة مقاطع: مُ: س ح، وحَمْ س ح س، ومَدْ س ح س؛ وهي بعد الإعراب أصبحت مقاطع أربعة، مُ س ح، وحَمْ س ح س، ومَ س ح، ودُ ن س ح س.

وإلحاق النون بالدال الإعرابي يفضي بنا إلى القول: إن الدالّ، هنا، يتكون من صوتين: الحركة القصيرة والنون الصامتة: ح + س، وهما في الكلمة المعربة جزء من المقطع الأخير، وجماع الحركة مع الساكن في الكلمة المعربة بالتنوين ليس عنقودًا صوتيًّا وليس مقطعًا، وفق تعريفات العنقود[٢] والمقطع[٣]، وليس من تجمع صوتي على هذا النحو في العربية: ح + س[٤].

(١) الشايب، ٢٠١٢، ص١٨٠.

(٢) الخولي، ١٩٩٠، ص١٨٠.

(٣) إيلوار، ١٩٨٠، ص٣٠..

(٤) الخولي، ١٩٩٠، ص١٨٠-١٩٩.

إن التحليل لدالّ الإعراب في الأسماء المنونة يقود الدراسة الحالية للزعم بأن النون في هذه الأسماء ليست جزءًا من الدالّ الإعرابي، بل هي دالّ آخر صرفي، وليس نحويًّا، وهو دالّ يحضر بغياب التعريف، بدليل غياب النون وثبات الحركة القصيرة في الأسماء المعربة المعرفة بأل، كما في "الكتاب":

كتابٌ ← الكتابُ

kitaabun → ∂aLkitaabu

n → ϕ

وعلى ذلك، ترتضي الدراسة القول إن الدالّ الإعرابي في الأسماء المنونة هو الحركات القصيرة، ومن هنا فالاسم: "كتابٌ" مرفوعٌ بالضمة، ومنصوب بالفتحة في "كتابًا"، ومجرورٌ بالكسرة في "كتابٍ"، والكلمة المنونة، تشتمل على لاحقتين، نحوية وصرفية، أما الصرفية فلاحقة النون، وأما النحوية فدالّ الإعراب: "الحركة القصيرة".

- **السكون:**

جعل الأقدمون "السكون" في مجموعة تصنيفية واحدة مع الحركات القصيرة[١]، وجعله بعض المعاصرين حركة كبقية الحركات[٢].

(١) طحان، ١٩٩٠، ص٩.

(٢) ناصف، ج١، ص٢١.

إن ما يمكن أن يُفهمه السكون من مجمل ما ورد عنه من تكلم في التراث النحوي أنه دال آخر على الجزم للأفعال غير ذلك الدالّ بالحذف لأحرف العلة والنون؛ و"السكون" لا يكون في المنطوق كما في المكتوب، ومن ثم، فإن الخلط بين المنطوق والمكتوب نجمت عنه مشكلات في فهم حقيقته.

فالأقدمون نظروا إليه بوصفه حذفًا للعلامة الإعرابية(١)، وكذلك فعل التقليديون من المعاصرين، فقرروا أن السكون حذف للحركة القصيرة(٢)، فانضاف السكون بذلك للمحذوفات من حروف العلة والنون(٣).

أما الحقيقة النطقية لما يمثّله السكون فتختلف عما يجري مع حروف العلة والنون، فالنظر في المكتوب هو ما أسس للتصور التقليدي للسكون؛ فالناظر في "يكتبُ" و"يكتبَ"، ينظرُ في "يكتبْ" في سياق الجزم، فلا يرى أيًّا من الحركات القصيرة وقد مُثِّل رسمه على آخر الكلمة، وعلى ذلك راح الناظر يحكي عن حذف للحركات، فَفُسِّرَ الغياب بالحذف، دون أن يكون الغياب ذاته دالًّا إعرابيًّا.

(١) الزجاج، ج١، ١٩٨٨، ص١٣٦.

(٢) حمودة، ١٩٩٨، ص٦٥.

(٣) القيام، ٢٠١٢، ص٣٠١.

فالكلمات تخرج من المخزون المعجمي دون أن تصطحب معها أيًّا من الحركات الإعرابية[1]، والحركات الإعرابية ليست فونيمات أو أصواتًا كأصوات الكلمة، وليست كالحركات الصرفية، بل حركات إعرابية أو وحدات صرفية (مورفيمات)، وعلى ذلك، فهي وحدة صرفية تقف بالتوازي مع الوحدة المعجمية الأصلية، والفرق الوحيد بينهما أن العلامة الإعرابية وحدة مقيدة، في حين إن الوحدة المعجمية مستقلة.

إن هذا الفهم يفضي بنا، إلى القول بأن المفردة المعجمية الأصلية، كما في الأمثلة: "كتب" و"درس" و"علم"، سبقت بمورفيم المضارعة (حرف المضارعة) (Prefix)، فانتقل الفعل معه من زمن مضى إلى الزمان الحاضر، ثم تلا الفعل "لاحقة" (Suffix) هي مورفيم الإعراب (الحركة القصيرة)، لتضيف للفعل حالة الرفع إذا كان مورفيم الإعراب الضمة القصيرة، ولتضيف للفعل حالة النصب إذا كان المورفيم الإعرابي فتحة قصيرة، وأما حالة الجزم فيعبر عنها بغياب أيّ حركة تلحق بالفعل، وهو ما يطلق عليه في الدرس اللساني الصرفي، مورفيم الصفر (Zero morpheme)، وعلى ذلك، فإن الغياب ليس حذفًا، لكن ما دفع إلى القول بالحذف هو النظر في الكتابة.

(١) المسدي، ٢٠١٠، ص٦٤.

وبذلك، فإن الكلمتين "يكتبُ" و"يكتبَ" تتكون كل منهما من ثلاثة مورفيمات (وحدات صرفية)، واحد منها حر هو المورفيم (كتب)، وأما المورفيمان الآخران فمقيدان، وهما مورفيما (المضارعة) و(الإعراب)، الأول "سابق" والآخر "لاحق".

والكلمة (يكتبْ) تتكون أيضًا من ثلاثة مورفيمات، أحدها حر: (كتب)، وآخر مقيد (سابقة حرف المضارعة)، وثالث مورفيم الصفر وهو دال الجزم، وتمثَّل بغياب أي من الحركات القصيرة.

إن "السكون"، مثال واضح على مورفيم الصفر، وفق مفهومه في الدرس الحديث[١]، وهو مثال غاب عن أمثلة بعض اللسانيين المعاصرين، حين عرضوا للمفهوم فالتمسوا أمثلته من لغات أخرى غير العربية[٢].

إن عدَّ "السكون" دالًّا إعرابيًّا صفريًّا ينقض النظر إليه بوصفه حذفًا، وينقض ما تكرر كثيرًا في مباحث النحويين التقليديين من أن السكون حركة. فالخضري في حاشيته على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك يقول: "إنه ينوب عن أربع حركات الأصول عشر أشياء، فينوب عن الضمة الواو والألف والنون، وعن الفتحة الألف والكسرة والياء وحذف النون وعن الكسرة الفتحة والياء وعن السكون الحذف[٣].

(١) الخولي، ١٩٩٠، ص١٩٧.

(٢) إيلوار، ١٩٨٠، ص١٠٢.

(٣) الخضري، ج١، ص٣٤.

وفي السياق ذاته ينص حفني ناصف على أن "الحركات قسمان: أصلية وفرعية، فالأصلية: الفتحة والكسرة والضمة والسكون، وهي المصطلح على تصويرها هكذا: ـَ، ـِ، ـُ، ـْ"(١).

فما يُفهمه النصان، أعلاه، أن "السكون" من مجموعة الحركات، وأنه يشتمل على قيمة صوتية فعلية كالحركات، ولعل ذلك إنما يتأتى من النظر في ما للسكون من وجود فعلي في الكتابة، يمثله رسم السكون: ـْ، دون التنبه إلى أن الرسم يشير إلى عدمية صوتية، تجعل من الاستحالة ضمَّ السكون لمجموعة الحركات وقيمها الصوتية الفعلية، وهو أمر اهتدى إليه العكبري، إذ جعل السكون من ألقاب الإعراب، لكنه مختلف عن الحركات، قال العكبري: "وإنما كانت ألقاب الإعراب أربعة، ضرورة، إذ لا خامس لها، وذلك أن الأعراض إما حركة وإما سكون والسكون نوع واحد والحركات ثلاث..."(٢).

وكان الأزهري أشار إلى صفرية نطقية تقابل السكون، "فعلامة السكون دائرة، لأن الدائرة صفر، فليس له قيمة عددية إيجابية، وكذلك السكون، من الناحية الصوتية، خالٍ هو الآخر من التحقيق الصوتي، أي ليس له أثر مادي من ناحية النطق الفعلي"(٣).

(١) ناصف، ج١، ص٢١.

(٢) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٥.

(٣) الأزهري، ج٢، ١٣٥٨هـ، ص٣٤٣.

ـ الحروف:

فصل النحويون حركات الإعراب عن حروفه[١]، فالحركات أصل والحروف فرع عليها[٢]، وتشير الحركات عند النحويين إلى الحركات القصيرة الضمة والفتحة والكسرة، أما حروف الإعراب فتشير إلى الألف والواو والياء والنون؛ والإعراب بها نتج عن تعذر الإعراب بالحركات[٣].

لقد وفد مصطلح "الحرف" من النظام الكتابي، فالأبجدية العربية تثبت رسومًا للصوامت والحركات الطويلة وأشباه الحركات، ولا تثبت أيّ رسوم مستقلة للحركات القصيرة، بل إن المكتوبات العربية تمثل ما قصر من حركات برسوم إضافية فوق الحرف أو تحته؛ مما رسخ حالة من النظر إلى الحركات القصيرة على أنها تتبع الحروف، وليست مستقلة عنها، وهو ما جعل الحرف عند النحويين مقابلًا للحركة القصيرة، برغم ما تشتمل عليه الحروف من تباينات.

ولعل هذا التصور يفسر التكلم عن حروف الإعراب عند النحاة على أنها مجموعة تصنيفية واحدة، في حين أن النظر في المنطوق لا المكتوب يظهر أمرًا مغايرًا، يرد بيانه في ما يأتي:

(١) الزجاجي، ١٩٨٦، ص١٣٨.
(٢) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٤.
(٣) العكبري، ج١، ١٩٩٥، ص٥٥.

- الإعراب بالألف والواو والياء:

يقول المخزومي: "وقد اعترضت سبيل النحاة علامات ظنوا أنها مستقلة، ورأوها تقوم مقام الحركات في الإعراب، وليس بين الحركات وهذه "الحروف" من فرق إلا في الكم الصوتي، أما الكيف، فلا فرق بين هذه وتلك، فالحركات أصوات مد قصيرة، والأحرف أصوات مد طويلة، والواو التي زعموا أنها علامة فرعية، ليست سوى ضمة مطولة، والياء التي ظنوا أنها علامة جر فرعية ليست سوى كسرة مطولة وكذلك الألف ليست إلا فتحة مطولة"(١).

إن تحديد الفرق بين الحركات القصيرة والطويلة بالمدة الزمنية Duration أمر أقرته اللسانيات المعاصرة(٢)، وهو ما عرفه الدرس القديم بنصه على أن حروف الإعراب الواو والألف والياء ناشئة عن إشباع الحركات(٣)، والتفريق بين الحركات القصيرة والطويلة، على هذا النحو ينقضُ ما قال به بعض المعاصرين من الفصل بين الحركات والحروف باعتبار أن حركات الإعراب (الحركات القصيرة) واصلة بين المستويين الصوتي والنحوي، وأما حروف الإعراب فملتقى المستويين الصرفي

(١) المخزومي، ١٩٦٤، ص٦٨.

(٢) عمر، ١٩٨٥، ص٢٨٢.

(٣) ابن جني، ج٣، ١٩٩٠، ص١٣٨.

والنحوي[1]، فالدَّوالّ الإعرابية: الحركات القصيرة والطويلة أصوات تحمل ذات الخصائص، ولا يميز بينهما إلا المدة الزمنية التي يُنطق بها الصوت، وهي بذلك مورفوفونيمات، أي: وحدات صرفية مكونة من صوت واحد، تربط النظام الصوتي بالنحوي عبر الصرف.

وعليه، فإن من التوهم أن نضع الحركات الطويلة في مجموعة تصنيفية واحدة مع النون الصامت، فالصوامت مغايرة في طبيعتها النطقية للحركات، وما يجمع بين النون والحركات الطويلة ليس إلا التمثيل الكتابي في الأبجدية.

إن النظر للألف والواو والياء بوصفها حركات طويلة مستقلة، يجعل الإعراب بها يتبع للإعراب بالحركات لا بالحروف، فهي دوالّ إعرابية حركية تظهر في مواطن محددة، من مثل الأسماء الخمسة وجمع المذكر السالم والمثنى المرفوع.

أما المثنى المنصوب والمجرور، فالياء فيه ليست حركة طويلة، بل شبه حركة:

معلم ← مُعَلِّمَين

mu6allim → mu6allimayni

(١) ياقوت، ١٩٩٤، ص٥٧.

فالياء، هنا، غير الياء في جمع المذكر السالم منصوبًا ومجرورًا:

مُعَلِّم ← مُعَلِّمِين

mu6allim → mu6allimiina

فالياء في المذكر السالم حركة طويلة: (ii)، والتخالف بين البنيتين: الجمع والمثنى، يقع باستبدال الياء الحركة الطويلة بالياء شبه الحركة.

ومن هنا، تنضاف الياء شبه الحركة لمجمل الدَّوالّ الحركات القصيرة والحركات الطويلة، مع التنبه إلى أن ظهورها لا يكون إلا في المثنى، منصوبًا أو مجرورًا.

أما الدَّوالّ الحركات الطويلة فيكون ظهورها على نحوٍ من:

- **الألف**:

وتظهر دالة على الرفع في المثنى، ودالة على النصب في الأسماء الخمسة:

معلم ← معلمان

mu6allim → mu6allimaani

أخ ← أخاك

∂ax → ∂axaaka

- **الواو**:

وتدل على الرفع في جمع المذكر السالم والأسماء الخمسة:

معلم ← معلمون

mu6allim → mu6allimuuna

أخ ← أخوك

∂ax → ∂axuuka

- **الياء**:

وتظهر في جمع المذكر السالم منصوبًا أو مجرورًا، وفي الأسماء الخمسة المجرورة:

معلم ← معلمين

mu6allim → mu6allimiina

أخ ← أخيك

∂ax → ∂axiika

الأمثلة السابقة تظهر نوعين من الدَّوالّ الإعرابية:

- الحركات الطويلة (الألف والواو والياء).
- شبه الحركة (الياء).

أما المقطع (س ح) "نَ" في جمع المذكر السالم، والمقطع (س ح) "نِ" في المثنى فلاحقة صرفية لا تتزلزل كالدَّوالّ الإعرابية بتزلزل وظائفها.

أما نوع الحركة في المقطع، أعلاه، (س ح)، فمحكوم بقانوني المماثلة والمخالفة في اللغة[١]، وهما قانونان يترجمان مقولة سوسير التي تنص على أن اللغة تقوم على التخالف[٢].

ففي المثنى المرفوع تكون المخالفة بين الفتحة الطويلة والكسرة القصيرة:

mu6allimaani

aa ↔ i

وفي المثنى المنصوب والمجرور تجري المماثلة بين الياء شبه الحركة والكسرة القصيرة، باعتبار أن شبه الحركة حركة من الناحية النطقية[٣]:

mu6allimayni

y↔ i

أما في جمع المذكر السالم، فجرت المخالفة على نحوٍ من:

(١) الشايب ٢٠١٢، ص١٠٩.

(٢) سوسير ١٩٨٥، ص١٨٣.

(٣) الشايب، ٢٠١٢، ص٨١.

- في حالتي النصب والجر تكون المخالفة بين الكسرة الطويلة والفتحة القصيرة:

mu6allimiina

ii ↔ a

- وفي الرفع تتخالف الفتحة نفسها مع الضمة الطويلة:

mu6allimuuna

uu ↔ a

إن النقاش المعمق في اللاحقة الصرفية (نَ) أو المقطع (س ح) يرتجى منه فصل هذه اللاحقة عن الدالّ الإعرابي في المثنى وجمع المذكر السالم، ومما يعضد هذا الفصل أن اللاحقة (نَ) تحذف في حالة الإضافة؛ فدالّ الرفع في المذكر السالم المضاف هو الضمة الطويلة وحدها:

جاء معلمو المدرسة

mu6allimuu

mu6allim + uu

ودال الرفع، هنا، إشباع للضمة القصيرة في المفرد:

جاء معلمُ المدرسة

mu6allimu

mu6allim + u

معلمُ ← معلمو

mu6allimu → mu6allimuu

u → uu

ويجري الإشباع ذاته في حالة الجر:

سلمت على معلمي المدرسة

mu6allimii

mu6allim + ii

فالكسرةُ الطويلة إشباع للكسرة القصيرة في المفرد:

سلمت على معلمِ المدرسة

mu6allimi

mu6allim + i

mu6allimi → mu6allimii

i → ii

أما في النصب فيظهر التقابل بين المذكر السالم والمفرد كمًّا ونوعًا؛ أما النوع فلأن النصب في المذكر السالم دالّه الكسرة الطويلة، وداله مع المفرد الفتحة القصيرة، وأما الكم، فبسبب التقابل الزمني بين حركة طويلة وأخرى قصيرة.

وتحذف النون أيضًا في المثنى المضاف؛ لتظهر الفتحة الطويلة دالًّا إعرابيًّا في الرفع، ولتظهر الياء شبه الحركة دالًّا في النصب والجر.

جاء معلما المدرسة

mu6allimaa

mu6allim + aa

زرت معلمي المدرسة

mu6allimay

mu6allim + ay

سلمتُ على معلمي المدرسة

mu6allimay

mu6allim + ay

- الإعراب بحرف النون:

يتفق النحويون على أن علامة الإعراب في الأفعال الخمسة المرفوعة هي حرف النون[1]، وكرة أخرى، فإن هذا الوصف جاء من المكتوب لا المنطوق؛ فالأبجدية العربية تثبت رسومًا للصوامت والحركات الطويلة وأشباه الحركات، أما الحركات القصيرة فلا تثبت رسومها بالتوازي مع

(١) الأشموني، ج١، ص٢٦.

الحروف، بل يُتَعاملُ معها في المكتوبات بمبدأ الفوقية والتحتية، فهي إما فوق الحرف أو تحته، وعلى ذلك، رسخت عند النحويين فكرة التبعية: تبعية الحركة للحرف، وهو ما جعل الناظر في مكتوبات الأفعال الخمسة ينظر للنون المضافة للفعل ولا ينظر لما بعدها من حركة قصيرة (فتحة أو كسرة).

أما التحليل للمنطوق فيظهر وصفًا مغايرًا لما جرى، فالفعل "يدرس"، وهو فعل مسبوق بسابقة المضارع، تلته لاحقتان نحويتان: أما الأولى فدالّ الفاعل أو مورفيمه، وهي الفتحة الطويلة في "يدرسان" و"تدرسان"، والضمة الطويلة في "يدرسون" و"تدرسون"، والكسرة الطويلة في "تدرسين"؛ أما اللاحقة الأخرى فلاحقة الإعراب أو دالّه، وهو المقطع: "س ح" "na" في "يدرسونَ" و"تدرسينَ" و"تدرسونَ"، والمقطع "س ح" "n i" في "يدرسانِ" و"تدرسان".

فالمقطع (س ح) في الأفعال الخمسة المرفوعة دالّ إعرابي كغيره من الدَّوالّ، وإن تغاير عنه بوصفه مقطعًا لا صوتًا.

- **الحذف**:

جاء التكلمُ عن الإعراب بالحذف في مواضع ثلاثة: الحذف لحروف العلة من الأفعال معتلة الآخر، والحذف للنون في الأفعال الخمسة،

والحذف للحركة بالتسكين عند بعض المعاصرين[١]، أما السكون فعرضت له الدراسة في موضع تكلمها عن الإعراب بالحركات القصيرة، ولذا، سيتوزع النقاش في ما يتلو من صفحات على محورين:

- **حذف حروف العلة:**

عدّ النحاة حروف العلة (الحركات الطويلة) حروفًا كالصوامت تقبل التسكين[٢]، بسبب ظهور تمثيلها في الأبجدية بالتوازي مع تمثيل الصوامت، فهي تتغاير والحركات القصيرة في أنها ليست محكومة بالتبعية للحرف. من جهة أخرى، وبأثر من الكتابة السريانية[٣] تصور النحاة أن ثمة حركات قصيرة تسبق حروف المد (الحركات الطويلة)؛ فالضمة تسبق الواو والفتحة تسبق الألف والكسرة تسبق الياء.

أما النظر في المنطوق فلا يعرف تلك الحركة المزعومة، بل يظهر الأفعال المعتلة الآخر تنتهي بالحركات الطويلة، فحسب:

- يغزو: yaɣzuu
- يسعى: yasʕaa
- يقضي: yaqdii

(١) حمودة، ١٩٩٨، ص٦٥.

(٢) ابن عقيل، ج٢، ١٩٩٠، ص٢٦٦.

(٣) أبوعيد، ٢٠٠٦، ص٢١٦.

وتكشف الكتابة الصوتية أن ما يجري في هذه الأفعال عند جزمها هو:

- yaɣzu

- yasʕa

- yaqdi

فالجزم، هنا، تقصيرٌ للحركة الطويلة، لتصبح حركة قصيرة:

$$uu \rightarrow u$$

$$aa \rightarrow a$$

$$ii \rightarrow i$$

إن التفحص للمنطوق يفضي بالدراسة الحالية إلى الزعم بأن دالّ الجزم في الأفعال معتلة الآخر يكون بتقصير الحركة الطويلة أو اختزالها، لا بحذفها كلها.

أما النظر في المكتوب، فقاد النحويين إلى التكلم عن الجزم، هنا، على أن علامته الحذف؛ فالناظر في الأشكال الكتابية: "يغزو، يسعى، يقضي"، يرى فيها بعد الجزم حذفًا للحرف الأخير، كما في: "يغزُ" و"يسعَ" و"يقضِ"، ومما زاد من الخداع والتوهم أن النحويين يتصورون، بأثر من الكتابة، وجود حركات قصيرة قبل الحركات الطويلة، بدليل أن تلك الحركات المتوهمة عُدَّتْ دليلًا على ما حذف.

إن التحليل لواقع الجزم في الأفعال معتلة الآخر يجعل من القول بالحذف لجزء من الحركة مختلفًا عما تصوره النحويون من حذف؛ فالمحذوف عندهم حرف، في حين أن ما حُذف جزء من الصوت.

على أية حال، فإن دالًّا إعرابيًّا آخر انضاف لمجمل الدَّوالّ الإعرابية، وفق التحليل اللساني، هو دالّ الاختزال أو التقصير للحركات الطويلة.

- **حذف النون:**

بينت الدراسة أن ما تصوره النحويون إعرابًا بثبوت النون في الأفعال الخمسة المرفوعة كان إعرابًا بالمقطع، أما في حالتي النصب والجزم، فتصور النحاة أن علامة الإعراب تكون بحذف ما ثُبّت سابقًا، والحق أن النظر في الكتابة وحدها هو ما أفضى إلى هذا الاعتبار، فالنحويون وصفوا الأشكال الكتابية للأفعال الخمسة في حالة الرفع وفي حالتي النصب والجزم:

يكتبون ← يكتبوا

يدرسان ← يدرسا

تعملين ← تعملي

فوجدوا أن النون تثبت في الرفع وتحذف في النصب والجزم، أما الحركة التالية للنون فلا اعتبار لها لأنها فوق الحرف وتابعة له.

أما النظر في المنطوق فيقضي بحذف المقطع الملحق بهذه الأفعال، والتكلم عن محذوف، هنا، يجيء باعتبار أن الفعل في حالة الرفع هو الأصل، وأنه في حالتي النصب والجزم فرع على الأصل، وهذا نظر معياري ساد الأنحاء الكلاسيكية كلها، أما النظر الوصفي فلا يقول بالأصول والفروع في مثل هذه المواضع[1]، وبذا يكون دالّ الجزم في هذه الأفعال كدالّ الجزم في الأفعال الصحيحة المفردة "السكون"، أي: "مورفيم الصفر".

ومن هنا، فإن الأفعال الخمسة المنصوبة والمجزومة تنطوي على ثلاثة لواصق صرفية: سابقة "المضارعة" أو "مورفيم المضارعة"، ولاحقة الفاعل: "مورفيم الفاعل"، ودالّ الحالة النحوية أو (مورفيم الإعراب)، وهو في هذه الأفعال، وبرغم أنه صفريّ، إلا أنه يحفظ منزلة، نعرفها بمقارنتها بدالّ الرفع في الأفعال الخمسة: المقطع.

حاصل التكلم في هذه الورقات أن الدَّوالّ الإعرابية وفق التصور اللساني المعاصر، وهو تصور ينبني على تحليل المنطوق ووصفه، لا تتوزع على محاور ثلاثة، كما هي في تصور النحويين التقليديين: حركة، حرف، حذف، بل هي تتوزع على المحاور الآتية:

(١) عبد الله، ٢٠٠٧، ص٦١.

- الحركات. حركات قصيرة / حركات طويلة
- شبه الحركة.
- اختزال الحركة.
- المقطع.
- مورفيم الصفر.

ولعلَّ الجدول، أدناه، يكشف عن الدَّوالّ الإعرابية ومواقع ظهورها وفق ما انتهت إليه الدراسة من تصور:

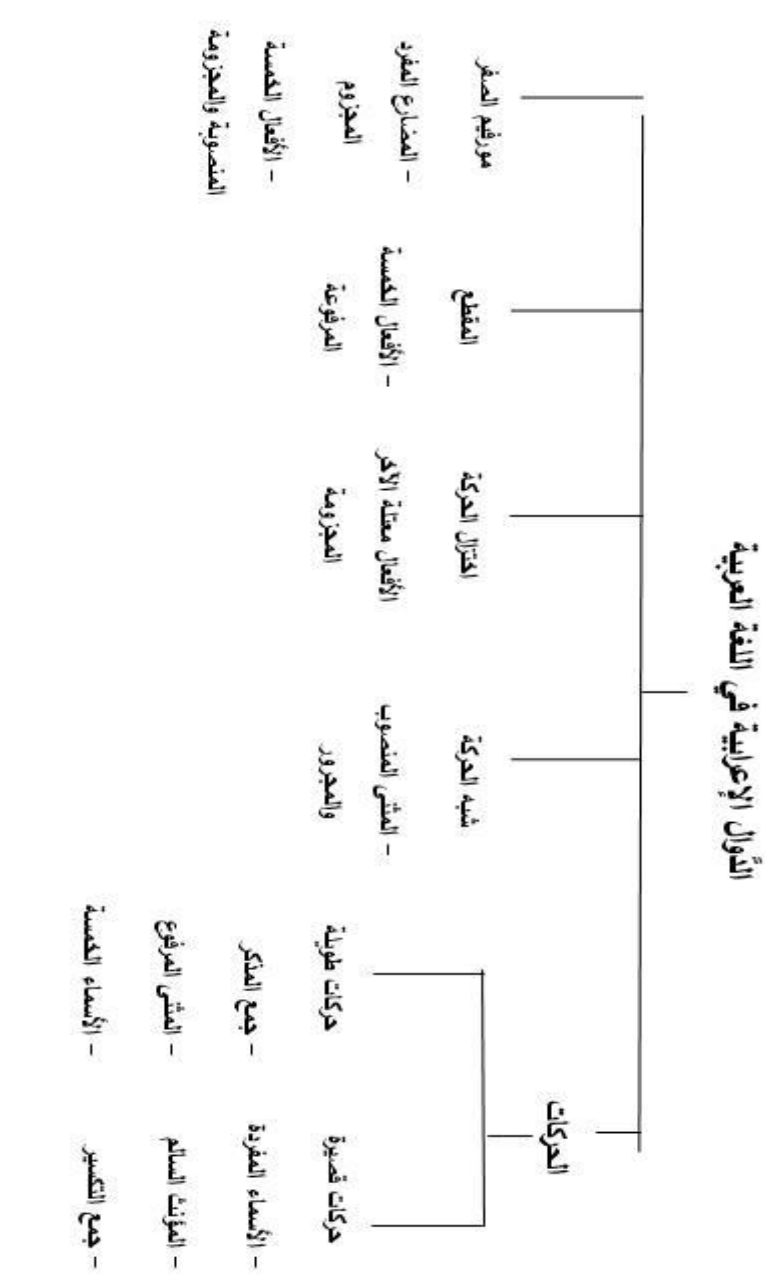
الدَّوال الإعرابية في اللغة العربية
الحركات
حركات قصيرة
- الأسماء المفردة
- المؤنث السالم
- جمع التكسير
حركات طويلة
- جمع المذكر
- المثنى المرفوع
- الأسماء الخمسة
شبه الحركة
- المثنى المنصوب والمجرور
اختزال الحركة
الأفعال معتلة الآخر المجزومة
المقطع
- الأفعال الخمسة المرفوعة
موقِّم الصفر
- المضارع المفرد المجزوم
- الأفعال الخمسة المنصوبة والمجزومة

شكل (٢)

*** نتائج الدراسة:**

- جاءت الدراسة بمفهوم جديد للعلامة الإعرابية، إذ جعلت تلك العلامة، ككل العلامات اللغوية، منطوية على الدَّالّ والمدلول.

- الدوالّ الإعرابية، التي أطلق عليها الأقدمون علامات الإعراب، هي وحدات صرفية وليست صوتية، أو هي أصوات ومقاطع ووحدات صفرية تقوم بوظائف صرفية (مورفيمات).

- الدوالّ الإعرابية الحركات القصيرة والحركات الطويلة وأشباه الحركات هي أصوات تقوم بوظائف صرفية، وهي ما يطلق عليه في اللسانيات المعاصرة المورفوفونيم.

- تتماثل الدوالّ الإعرابية، بوصفها وحدات صرفية، مع الوحدات الصرفية الحرة (المفردات المعجمية) من حيث الوظيفة الدلالية، لكن الدوالّ الإعرابية وحدات مقيدة (مورفيم مقيد)، وهما على ذلك، الحر والمقيد مضافًا إليهما المورفيم الصفر، الوحدات الدلالية الصغرى في العربية.

- يستنبط من ذلك أن الدوالّ الإعرابية بما فيها الحركات القصيرة والسكون موضوع لعلم الصرف لا لعلم الأصوات.

- الدوالّ الإعرابية، وهي وحدات صرفية، تتكون من شقين: دالّ ومدلول، أما الدالّ فهو العلامة الإعرابية الموجودة بالفعل (المورفيم

المقيد) أو بالقوة (مورفيم الصفر)، وأما المدلول فهو الوظيفة التي ينجزها الدال.

- كشفت الدراسة عن أن التصور التقليدي للدوالّ الإعرابية انبنى على النظر في المكتوب دون المنطوق، فالأقدمون خلطوا بين اللغة والكتابة فوصفوا ما خطه القلم لا ما نطق به اللسان، وهذا أسقطهم في الخطأ والوهم. وعلى ذلك توزعت الدَّوالّ الإعرابية، وفق تصورهم، على ثلاثة محاور: حركة وحرف وحذف.

- نقضت الدراسة التصور التقليدي للدوالّ الإعرابية، لأنه ينبني على المكتوب، فالتحليل للمكتوب لا يتفق وما أقرته اللسانيات المعاصرة من أن المنطوق هو المادة المركزية للتحليل اللغوي.

- طرحت الدراسة تصورًا بديلًا عن التصور التقليدي، انبنى على النظر في المنطوق، وحده، وصفًا وتحليلًا.

- تتوزع الدَّوالّ الإعرابية، وفق التصور البديل على محاور خمسة:

أ- الحركات القصيرة والطويلة.

ب- أشباه الحركات.

ج- اختزال الحركات.

د- المقطع.

هـ- الدال الصفري: (مورفيم الصفر).

- إن توزع الدَّوالّ الإعرابية على المحاور الخمسة، أعلاه، ينقض كثيرًا من مقولات النحويين والدارسين بخصوص ظاهرة الإعراب، فهو ينقض الربط بين الإعراب والحركات القصيرة، وحدها[١]، وينقض القول بالأصل والفرع في الإعراب[٢]، وينقض ما زعمه الدارسون من أنه ليس ثمة من شواهد على الإعراب في النقوش العربية القديمة، لأن الكتابة العربية كتابة صوامتية، لا تدون الحركات[٣]، فدوالّ الإعراب لا تقوم على الحركات، فحسب، بل تكون بالحركات القصيرة وتكون بغيرها من حركات طويلة وأشباه حركات ومقاطع ودوالّ صفرية، والدَّوالّ الثلاثة الأخيرة يمكن أن نعثر عليها في المكتوبات العربية، حتى لو كانت صوامتية.

(١) الزجاجي، ١٩٨٦، ص٩١.

(٢) العكبري، ج٢، ١٩٩٥، ص٧٥.

(٣) حجازي، ١٩٩٢، ص٢٢١.

ثبت بمصادر البحث ومراجعه

- **ابن جني، أبو الفتح عثمان**، *الخصائص*، القاهرة، دار الكتب المصرية.

- **ابن عقيل، بهاء الدين**، *شرح ابن عقيل*، ط١، بيروت، دار الخير، ١٩٩٠.

- **ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق**، *الفهرست*، تحقيق: رضا تجدد.

- **ابن هشام، أبو محمد عبد الله**، *أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٩٧٥.

- **أبو عيد، محمد**، "أثر الكتابة الأبجدية في تحليل الأصوات الصائتة عند علماء العربية القدماء"، *مجلة جامعة قطر للآداب*، العدد (٢٨)، ٢٠٠٦، ٢٠٧-٢٣٠.

- **الأزهري، خالد**، *شرح التصريح على التوضيح*، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٨هـ.

- **الأشموني، أبو الحسن علي نور الدين**، *شرح الأشموني على ألفية ابن مالك*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

- **أنيس، إبراهيم**، *من أسرار اللغة*، ط٥.

- **إيلوار، رونالد،** *مدخل إلى اللسانيات*، ترجمة: بدر الدين القاسم، ط١، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٨٠.

- **بركة، بسام،** *علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية*، بيروت، مركز الإنماء القومي.

- **حجازي، محمود فهمي،** *علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية*، القاهرة، دار غريب، ١٩٩٢.

- **حسان، تمام،** *الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب*، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٤.

- **حسان، تمام،** *اللغة العربية معناها ومبناها*، ط٣، القاهرة، عالم الكتب، ١٤١٨هـ.

- **حماسة، محمد،** *العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث*، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٣.

- **الحمزاوي، محمد رشاد،** *العربية والحداثة، أو الفصاحة فصاحتان*، تونس، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، ١٩٨٢.

- **حمودة، طاهر سليمان،** *ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي*، الإسكندرية، الدار الجامعية، ١٩٩٨.

- **الخضري، محمد،** *حاشية الخضري على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك*، مصر، المكتبة التجارية الكبرى.

- **الخولي، محمد علي**، *مدخل إلى علم اللغة*، عمان، دار الفلاح، ١٩٩٣.

- **الزجاج، أبو إسحق**، *معاني القرآن وإعرابه*، تحقيق: عبد الجليل عيده شبلي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٨.

- **الزجاجي، أبو القاسم**، *الإيضاح في علل النحو*، تحقيق: مازن المبارك، ط٥، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٦.

- **الزعبي، آمنة صالح**، "ما نسي أصله من ظاهرتي التنوين والتمييم في اللغة العربية، دراسة تاريخية مقارنة" *دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية*، المجلد (٣٣)، ٢٠٠٦، ١٣-٢٧.

- **سوسير، فرديناند**، *علم اللغة العام*، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، ط١، بغداد، آفاق عربية، ١٩٨٥.

- **شاهين، عبد الصبور**، *المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة للصرف العربي*، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠.

- **الشايب، فوزي**، *قراءات وأصوات*، ط١، إربد، عالم الكتب، ٢٠١٢.

- **الطحان، راسم**، *حقيقة الإعلال والإبدال والإعراب، ونهج جديد في البحث اللغوي انتهى إلى اكتشاف حقائق لغوية كبرى في الصوتيات والصرف والنحو والعروض*، ط١، ألمانيا، Germany adiverlag، ١٩٩٠.

- **عبد الله، فهيم**، *علامات الإعراب الفرعية في السور المدنية في القرآن الكريم، دراسة نحوية دلالية*، رسالة جامعية، فلسطين، نابلس، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، ٢٠٠٧.

- **عبد الجواد، محمد**، *قواعد النحو البدائية في اللغة العربية*، القاهرة، مطبعة محرم الصناعية، ١٩٧٢.

- **العكبري، أبو البقاء**، *اللباب في علل البناء والإعراب*، تحقيق: غازي مختار طليمات، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥.

- **عمايرة، إسماعيل**، "العلاقة الصوتية بين آخر الكلمة وأول مجاورتها في التركيب النحوي"، *مجلة جامعة دمشق*، المجلد ٢٨، العدد (٢)، ٢٠١٢.

- **عمر، أحمد مختار**، *دراسة الصوت اللغوي*، ط٣، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٥.

- **غازي، زهير**، "الإعراب وحركاته في العربية"، *مجلة مجمع اللغة العربية*، دمشق، المجلد ٧٩، ج٤.

- **فارس، فائز**، *اللغة العبرية*، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧.

- **الفارسي، أبو علي**، *المسائل العسكريات*، تحقيق: محمد الشاطر أحمد، ط١، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٨٢.

- **فك، يوهان، العربية الفصحى**، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، تحقيق: عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، ١٩٥١.

- **المبارك، مازن**، *نحو وعي لغوي*، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩.

- **المخزومي، مهدي**، *في النحو العربي، نقد وتوجيه*، ط٢، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٤.

- **المسدي، عبد السلام**، *العربية والإعراب*، ط١، بيروت، دار الكتب الجديدة المتحدة، ٢٠١٠.

- **ناصف، حفني**، *تاريخ الأدب أو حياة اللغة*، القاهرة، طبعة الجامعة المصرية.

- **وافي، علي عبد الواحد**، *فقه اللغة*، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٨٨.

- **ولفنسون، إسرائيل**، *تاريخ اللغات السامية*، بيروت، دار القلم، ١٩٨٠.

- **ياقوت، أحمد سليمان**، *ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم*، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤.